الحلقة 22

دارت رحاها في رمضان 13 هـ بين المسلمين والفرس

إعداد: هشام المنشاوي

معركة «البويب» .. إيمان وإعداد

في الثاني عشر من شهر رمضان سنة 13هـ – 634م، نشبت معركة البويب الفاصلة بين الفرس والمسلمين، على عهد الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، التي قادها قائد عبقري، هو المثنى بن حارثة.

ليست الحروب والمعارك في قواميس المسلمين عقائد مجردة عن التجهيز، ولا عتاداً مجرداً عن العقيدة، بل هي معادلة لها طرفان: إيمان وإعداد، يتناغمان كي يحصل النصر المؤزر الذي يرضي أهله ليفرحوا بنصر الله.

هذان المبدآن المتسايران جمعهما القرآن الكريم وحض عليهما، فقال تعالى (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)، وقال (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل). يتبين هذا جلياً في معركة البويب، التي انتصر فيها المسلمون على الفرس، بعد معركة الجسر.

يقول ابن كثير رحمه الله تعالى، في البداية والنهاية: وفي السنة الثالثة عشرة للهجرة، وقعت معركة البويب، أيام الفتوح بين المسلمين والفرس، في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه، والبويب هو نهر كان بالعراق، موضع الكوفة، وكانت بقيادة المثنى بن حارثة .رضي الله عنه ولما سمع أمراء الفرس بكثرة جيوش المثنى بن حارثة رضي الله عنه، بعثوا إليه جيشا مع رجل يقال له: مهران، فتوافوا هم واياهم بمكان يقال له: البويب، قريب من مكان الكوفة اليوم، وبينهما الفرات. فقالوا: إما أن تعبروا إلينا، أو نعبر إليكم. فقال المسلمون: بل اعبروا إلينا. فعبرت الفرس إليهم فتوافقوا، وذلك في شهر رمضان، من السنة الثالثة عشرة للهجرة. فعزم المثنى على المسلمين في الفطر، وقام المثنى فيهم خطيبا، فقال: إنكم صوام، والصوم رقة، ومضعفة، وإني أرى من الرأي أن تفطروا ثم تقووا بالطعام على قتال عدوكم. قالوا: نعم، فافطروا عن أخرهم، ليكون أقوى لهم، وعبئ الجيش، وجعل يمر على كل راية من رايات الأمراء على القبائل، ويعظهم ويحثهم على الجهاد، والصبر، والصمت. وفي القوم جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه، في بجلة، وجماعة من سادات المسلمين.

وقال المثنى لهم: إني مكبر ثلاث تكبيرات، فتهيأوا فإذا كبرت الرابعة، فاحملوا.فقابلوا قوله بالسمع والطاعة، والقبول، فلما كبر أول تكبيرة، عاجلتهم الفرس، فحملوا، واقتتلوا قتالا شديدا، ورأى المثنى في بعض صفوفه خللا. فبعث إليهم رجلا يقول: الأمير يقرأ عليكم السلام، ويقول لكم:لا تفضحوا العرب اليوم، فاعتدلوا. فلما رأى ذلك منهم، وهم بنو عجل، أعجبه، وضحك. وبعث إليهم يقول: يا معشر المسلمين، عاداتكم، انصروا الله ينصركم. وجعل المثنى رضي الله عنه، المسلمين يدعون الله بالظفر والنصر. فلما طالت مدة الحرب، جمع المثنى جماعة من أصحابه الأبطال، يحمون ظهره وحمل على مهران، فأزاله عن موضعه، حتى دخل الميمنة. وحمل غلام من بني تغلب نصراني، فقتل مهران، وركب فرسه. وقيل حمل عليه المنذر بن حسان بن ضرار الضبي، فطعنه، وأحتز رأسه جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه، واختصما في سلبه، فأخذ جرير السلاح، واخذ المنذر معطفه، وهربت المجوس، وركب المسلمون أكتافهم يفصلونهم فصلا. وسبق المثنى بن حارثة إلى الجسر، فوقف عليه ليمنع الفرس من الجواز عليه، وليتمكن منهم المسلمون. فركبوا أكتافهم بقية ذلك اليوم وتلك الليلة، ومن بعد إلى الليل. فيقال انه قتل منهم يومئذ، وغرق، قريب من مائة ألف، ومنهم من فر هاربا، تائها في الصحراء، ولله الحمد والمنة. وغنم المسلمون مالا جزيلا، وطعاما كثيرا. وبعثوا بالبشارة، والأخماس إلى عمر رضي الله عنه، وقد قتل من سادات المسلمين هذا اليوم بشر كثير أيضا. وذلت لهذه الوقعة رقاب الفرس، وتمكن الصحابة رضي الله عنهم من الغارات في بلادهم فيما بين الفرات ودجلة. فغنموا شيئا عظيما، لا يمكن حصره، وجرت أمور، يطول ذكرها بعد يوم البويب. وكانت هذه الوقعة بالعراق، وهي نظيرة لموقعة اليرموك بالشام. البداية والنهاية (جزء 7 صفحة 29).

هزة عنيفة

انسحب المثنى بقواته بعد إصلاح الجسر، فوجد حامية صغيرة من الفرس تسير على نهر الفرات، فحاصرها وقتل من فيها. ورغم صغر حجم هذه الموقعة، إلا أنها أحدثت هزّة عنيفة في الفرس، كما رفعت من معنويات الجيش الإسلامي.

من جديد، توجه الجيش الفارسي لمقابلة المثنى بن حارثة، الذي عسكر بجوار الحيرة، ووجه إليه الفاروق مدداً من الجنود. استفاد المثنى من الأخطاء السابقة، ومن خبراته مع خالد بن الوليد، فقرر أن يختار هو مكان المعركة، وتوجه بجيشه إلى منطقة تُسمَّى البُوَيْب، وأرسل رسائل إلى أمراء القوات الإسلامية القادمة من المدينة، بأن يتوجهوا إلى هناك، وكان المكان الذي اختاره في غرب نهر الفرات، فهذا النهر يفصل بين الجيش الإسلامي والجيش الفارسي القادم من المدائن، وجاء المدد الإسلامي، وانضم إلى جيش المثنى، وأصبح قوام الجيش ثمانية آلاف، والجيش الفارسي ما بين الستين والسبعين ألفاً على الضفة الأخرى لنهر الفرات.

أرسل الجيش الفارسي رسالة إلى المثنى: إما أن تعبروا إلينا أو نعبر إليكم. فأجاب المثنى بأن يعبروا هم إلى المسلمين. كان المثنى قد نظم جيشه جيداً، وكان هو في المقدمة، وجعل فرقة من الجيش في المؤخرة لا تشترك في القتال، حتى تحمي ظهر المسلمين من أي التفاف ربما يحدث من الجيش الفارسي حول الجيش الإسلامي.

تكرر مشهد معركة الجسر، ولكن بعكس الأدوار، فعندما عبر الفرس نهر الفرات، كان الجيش الإسلامي يحاصر المنطقة بكاملها، فدخلت القوات الفارسية في المنطقة الضيقة، وبذلك افتقدوا عنصر الكثرة، لأن المساحة التي تركها المسلمون للفرس ضيقة، ويقف جيشهم بكامله صفوفاً بعضهم خلف بعض، ويقابل صفهم الأول فقط صف المسلمين الأول، ولا يستطيع أحد الدخول في المعركة في الصف الأول من كلا الجيشين، فأصبح لا قيمة لعدد جيش الفرس عندئذ، وهذا ما كان خطط له المثنى بن حارثة. وبذلك انتصر المسلمون وقتلوا مهران بن باذان قائد الفرس، إضافة إلى خمسين ألفاً من الجنود. لقد اتضح في معركة البويب جلياً، أن التخطيط السليم والإدارة السليمة للمعركة، لهما دور مهم في النصر، مقترناً بعقيدة راسخة وإيمان ثابت.

هزيمة معركة الجسر

قاد معركة الجسر، أبو عبيد بن مسعود، ويذكر المؤرخون أن السبب الرئيس في هزيمة معركة الجسر، هو عدم التزام قائدها بمشورة عمر رضي الله عنه، حيث قال له: «لا تفش لك سراً، واستشر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم».

فقد فصلَ بين جيش المسلمين وجيش الفرس فرعٌ من نهر الفرات، وكان عليه جسر، فأشار عليه أصحابه ألا يعبر المسلمون الجسر إلى الفرس، لأنهم بذلك يضيق بهم المكان، ويصيرون فريسة سهلة للأعداء، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن المسلمين اعتادوا على القتال في الصحراء، فبقاؤهم قبل الجسر يعطيهم الفرصة للعودة إلى الصحراء، التي خبروا القتال فيها، فلا يستطيع الفرس النيل منهم هناك. لم يصغِ إليهم أبو عبيد سمعاً، واستأثر برأيه، فعبر الجسر، وحدث ما توقعه أصحابه، فقد ضاق المكان عليهم، وكانت الفيلة تقاتل في صفوف الفرس، حتى قتل المسلمون في هذه المعركة شر قتلة، وعلى رأسهم قائدهم أبو عبيد، الذي داسته إحدى الفيلة فقطعته أشلاء.

وزاد الطين بلة، حين قام أحد الجنود بقطع الجسر، ظناً منه أنه يجعل المسلمين يكرون على أعدائهم ويستبسلون في القتال، وهو ما ضاعف من أعداد الشهداء.

ما بعد المعركة

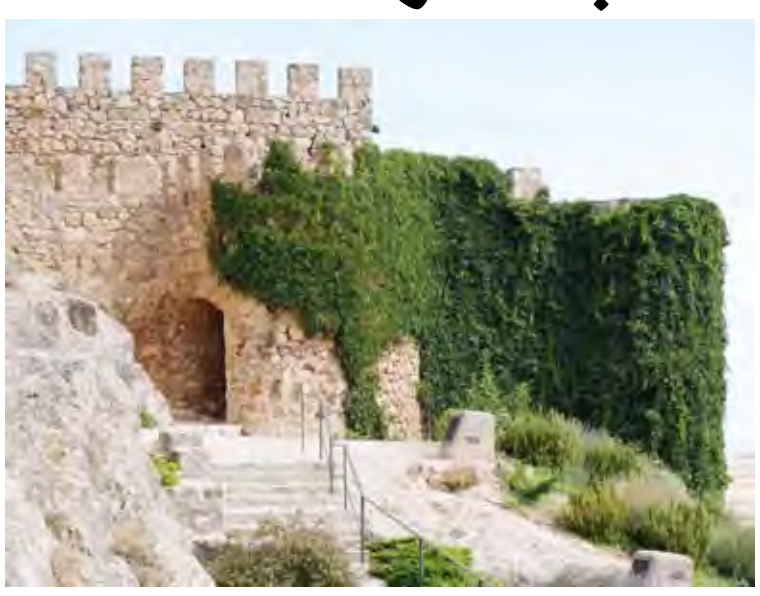

بعد انهيار القوات الفارسية وتشرذمها يأمر "المثنى" بملاحقة فلول الفارين والسيطرة على المزيد من الأراضي الفارسية التي كانت أبرمت مع المسلمين عقوداً ثم نقضتها. بلغ عدد الهالكين قتلاً وغرقاً من الفرس حوالي مائة ألف أي ثلثي الجيش تقريباً. أما المسلمون فاستشهد منهم 4000 مسلم. الجدير بالذكر أن "المثنى" قام أمام جيشه واعترف بخطئه في التفافه خلف الفرس حيث يرى أنه أرغمهم على التهلكة وهذا ليس من أخلاق المسلمين.

كفاءة القائد

جاء في موقع قصة الإسلام: لقد أثبت المثنى أنه قائد عسكري على درجة عالية من الكفاءة، فقد اختار أرض المعركة، وكانت محصورة بين الفرات والبويب، وهي تصلح لنصب الكمائن للعدو، ثم وضع الخطط المناسبة لهذه الأرض، بحيث يتسنى للقوات القليلة العدد أن تكون فاعلة، وتفقد الأكثرية العددية فاعليتها.

فتح رودس

وفي رمضان سنة ثلاثة وخمسين للهجرة، تم فتح جزيرة رودس، بضم الراء وكسر الدال: ببحر الروم حيال الإسكندرية، بقيادة جنادة بن أمية رحمه الله تعالى، في خلافة أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه. معجم البلدان، لياقوت الحموي. قال بن كثير رحمه الله تعالى، في البداية والنهاية: ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين، وفيها افتتح المسلمون، وعليهم جنادة بن أبى أمية، جزيرة رودس. فأقام بها طائفة من المسلمين، كانوا أشد شيء على الكفار، يعترضون لهم في البحر، ويقطعون سبيلهم. وكان معاوية رضي الله عنه، يدر عليهم الأرزاق، والأعطيات الجزيلة. وكانوا على حذر شديد من الفرنج، يبيتون في حصن عظيم عنده.

التعبئة والالتحام

تلقّى عُمر بن الخطّاب نبأ هزيمة المُسلمين في موقعة الجسر بهُدوء لافت، ولم يؤنّب الفارّين من ساحة القتال، بل نعى من قضَى نحبه وراح يواسي النّاس. وأدرك عُمر أنّ المُثنّى بحاجة إلى مدد يُرسل إليه على وجه السُرعة كي يُواجه هذا الموقف الدقيق، فقام بتكثيف حملاته التعبويّة، وأرسل رُسُله إليها يدعوها للسير نحو فارس لغزوها، فاستجابت لندائه، وتوافدت علىَ المدينة الحُشود العَظيمة من مُختلف أنحاء شبه الجزيرة العربيّة، فدفع عمر بن الخطاب هذا المدد إلى أرض العراق مددًا للمُثنّى، وكان على رأسها جُرير بن عبدُ الله البجلي وعرفجة بن هرثمة البارقي وغالب بن عبد الله الكناني وغيرهم من الأمراء، وانضمّوا إلى المُثنّى في البُويب على غرب الفُرات. ومن ناحية أُخرى أرسل المُثنّى النُقباء إلى جميع المناطقَ الحُدوديّة يستفزُّ العرب، وكان من ضمنهم جُموعٌ من المسيحيين من بني النمر، على رأسهم أنس بن هلال النمريّ، وقد آثر هؤلاء الانضمام إلى المُسلمين والقتال تحت راية واحدة ضدّ العجم، بعد أن جَمعتهم الرّابطةُ اللُغويّة والقوميّة.

تناهت إلى أسماع الفُرس أنباء الإمدادات الإسلاميّة التي كانت تُرسل تباعًا إلى العراق، فهالهم أمرها، وأدركوا أنّ انتصارهم في معركة الجسر لم يكن حاسمًا، وأنّهُ لا بُدّ من التغاضي عن الخلافات الداخليّة وتوحيد الجُهود لدفع الخَطر الإسلامي عن البلاد. وهكذا أنهى رُستم خلافه مع فيروز، الطّامع باعتلاء العرش الفَارسيّ، وتمّ إعداد جيش قوامه اثنا عشر ألف مُقاتل بقيادة مهران بن باذان الهمذانيّ، ودُفع إلى سَاحة القتال. وعندما علم المُثنّى بأنباء خُروج الفُرس للقتال، سَار بعساكره إلى البُويب وأرسل إلَى جُرير بن عبدُ الله البجلي أن يُوافيه هُناك ففعل، وعسكر المُسلمون على شاطئ الفُرات الشرقي، وعسكر الفُرس مُقابلهم لا يفصلُ بينهما سوى النهر. اشتبك الجمعان في رحى معركة طاحنة أدارها المُثنّى بحكمة بالغة ممّا كفلَ لهُ النصر. وقُتل مهرَان فيً المعركة وتشتّت جيشهُ وفرّ أفراده في فوضى واضطراب، فطاردهم المُسلمون طيلة يومين وقتلوا منهم وأسروا الكثير، وسُمي هذا اليوم «يوم الأعشار» لأنّهم أحصوا مائة رجلٍ قتل كُلٌّ منهم عشرة في المعركة.

تولية يزدجرد الثالث السُلطة

جعلت هزيمة البُويب أشراف الفُرس يجتمعون حول تولية ملك عليهم من سُلالة كسرى، فأدركوا خُطورة الموقف، وأنّ ما بعد سُقوط الحيرة وتكريت وساباط سوى سُقوط المدائن. وتشاور أركانُ الحُكم ونصبوا يزدجرد ابن شهريار بن كسرى، وهو يزدجرد الثالث، وكان عُمره إحدى وعشرين سنة وقيل خمس عشرة سنة، وعزلوا بوراندخت. وعيّن يزدجرد رُستم فرُخزاد قائدًا للجيش وكلّفهُ بأمر المُسلمين في الجنوب، وجدّد المسالح والثُغور وعيّن عليها حاميات عسكريّة، فسمّى جُند الحيرة والأنبارً والمسالح وجُند الأبلة.